

## مقدمة

تواجه حياتنا التعليمية صوراً من صور الاختلال السلوكي ، على مستويات شتى ، قد لا نستطيع أن نستثني منها مرحلة تعليمية دون أخرى ، فكما أننا نلمس هذه الاختلالات في مرحلة التعليم الأولى ، نلمسها كذلك في مرحلة التعليم الجامعي .

ولا يقتصر الأمر على فئة بعينها من فئات المجتمع التعليمي ، من معلمين وطلاب وإداريين ، وفنيين ، بل انتشر الخلل وكأنه وباء بدأ باعتباره طوفانا يكتسح أمامه أي محاولات للمقاومة والإصلاح ، وهي بطبيعة المرحلة ، والظروف ، والسياقات ، ضعيفة أصلاً فيكون سقوطها سريعاً ، مع رفع الرايات البيضاء .

ولا نريد أن نسوق أمثلة هنا ، فما من كتاب لنا كتبناه إلا ويحمل العشرات من الأمثلة ، إلى درجة قد تصل بها في لاهقيقة إلى إلى المئات ، وإلى الدرجة التي يعتبرنا البعض معها " سوداوي " النظر ، عينانا معلقة فقط بنصف الكوب الفارغ ، وهو ظن حسن في الحقيقة لأننا لو كنا نرى أي سائل في الكوب ، حتى ولو ربعه ، لهان الخطب ، ولفت نظرنا ، لكن المشكلة أن الكوب فارغ تماماً .

وكل هذه الصور من الاختلالات الهيكلية يمكن أن نخترلها في تعبير واحد هو الذي عنونا به الكتاب الحالي ( غروب الضمير ) ، فالضمير هو " مجمع " لخاصة التجارب التي نمر بها ، وما تلقيناه من مثل ، وما تعلمناه من معايير ، وما تربينا عليه من تعاليم ريبانية ونبوية . . . . هو هذا القاضي ، والمرشد ، والموجه والحاكم الذي أودعه الله في أعماقنا من أجل أن نهتدى إلى سواء السبيل ، والصراط المستقيم الذي ندعو المولى عز

وجل في كل صلاة ، عدة مرات مع قراءتنا " الفاتحة " " اهدنا الصراط  
المستقيم " ، دون أن نجد أنفسنا قد أصبحنا بالفعل على طريقه .  
هل يعنى هذا أننا ، رغم كثرة الدعاء ، لا تلقى دعوتنا استجابة من  
المولى سبحانه وتعالى ؟

الحق - فى تصورنا - أن المسألة ليست أن يتلفظ لساننا بعبارات  
الدعاء ، ولا أن تهتز قلوبنا به ، ذلك أن هناك مواصفات وشروط وقواعد  
لابد أن تؤخذ بعين الاعتبار ، عملاً وتنفيذاً ، لا معرفةً ووعياً فقط ،  
وموقفنا هو أشبه بالتلميذ الذى يدعو الله عز وجل أن يأخذ بيده وينجح فى  
الامتحان ، فهل يمكن لأحد أن يتصور إمكان نجاح هذا التلميذ بمجرد  
الدعاء مهما اشتدت حرارته وسالت الدموع على الوجنات؟

كلا ، لابد أن تؤتى البيوت من أبوابها ، ولابد من الأخذ بالأسباب ،  
وهى فى حالة التلميذ الذى يستعد للامتحان ، التعلم المتقن ، ومتابعة  
المذاكرة ، والوعى وحسن الفهم والإدراك لما تعلم .

وما الإنسان ، فى كل مواقف حياته إلا تلميذ فى امتحان . . .  
فليس الامتحان فقط هو أن نرى أسئلة مكتوبة على ورق نتطلب منا  
الإجابة ، تتعلق بما تعلمنا وذاكرنا ، ولكنه كل موقف حياتى ، له مقاصد ،  
يتطلب تحقيقها الاستعداد لها ، بحسن إعداد العدة ، والتحسب ، ورشد  
التفكير ، وحسن تقدير العواقب ، ورشد الربط بين العناصر والجزئيات  
ربطاً منطقياً .

وعندما يغيب كل هذا ، نستطيع أن نقول أن " الضمير " قد غاب ،  
وفى غياب الضمير ، لك أن تتوقع شر الأمور .

خذ على سبيل المثال عملية اختيار القيادات التعليمية ، وخاصة فى  
الجامعات والكليات ، والمستويات العليا فى وزارتى التربية والتعليم  
والتعليم العالى ، تجد أن العلاقات الشخصية ، والهدايا الضخمة ، العينية ،

والنقدية ، والتوصية ، وربما القرابة ، هي المعيار الأساسى ، بالتعاون مع " الرضا الأمنى " ، وليست الأهلية العلمية والكفاءة المهنية ، والاستقامة الخلقية . وبالنسبة للرضا الأمنى يتعلق بأخلاقيات وانحرافات أخلاقية ، وإنما هو يتعلق فقط بمدى المسايمة للنظام القائم والتزام الطاعة المطلقة ، ولا يهم بعد ذلك ما تكون عليه من أخلاقيات ، بشرط ألا تتورط ، ولا تضبط متلبسا ، تماما كما كان الأمر فى النظام الإسبرطى القديم ، حيث كان يُنزل العقاب بالسارق ، لا لأنه سرق ، ولكن لأنه تم كشفه والقبض عليه متلبسا !  
فها هنا نجد أن الباب لا بد أن يفتح على مصراعيه ، لما يصعب حصره من سوء السلوك ، والانحرافات الإدارية والمالية والعلمية

هنا لا بد أن يغيب الضمير ، وعندها يصح لنا أن نتذكر المثل الشعبى الشهير ، المعبر عن هذا الحال : " غاب القط ، إلب يا فار " ، والقياس مع الفارق بطبيعة الحال !!

والدراسات المتضمنة فى الكتاب الحالى ربما لا تضم إلا دراسة واحدة تتناول موضوع الضمير تناولا مباشرا ، لكن ليس معنى هذا أن العنوان قد أقحمناه على بقية الدراسات والمقالات ، فكما أكدنا ، فإن كل نقد وجهناه إلى هذا الجانب أو ذاك هو إشارة إلى غياب ضمير .

حتى هذه الدراسة الأولى عن المرأة موضوعا للتعليم والتعلم ، التى قد تبدو بعيدة عن عنوان الكتاب ، ذلك أن القارئ إذا تأمل جيدا فى الجزء الثانى من عنوان الدراسة ( صورة من صور العدل التربوى ) فهذا يعنى أن هذا العدل التربوى لا يتوافر إلا بتوافر " الضمير التربوى " أو للضمير المهنى إن صح التعبير .

وأخيرا فإننا نكرر ما أكدناه عدة مرات من حيث ما يغلب على كتاباتنا من حدة ، وغضب ، ذلك أن سوء الحال الذى تعيشه مصر منذ سنوات غير قليلة يكاد يعصر قلب كل غيور على هذا الوطن ومستقبله ، وخاصة

كبار السن أمثالي ممن عاشوا زمنا كان غير راضين عنه ، ألا وهو زمن الملكية قبل ثورة يوليو ١٩٥٢ ، فإذا بسيئاته تتصاغر أمام ما نعيشه اليوم وبعد أكثر من خمسين عاما .

وفى زمن الثورة ، قاسينا كثيرا ، لكننا كنا نشعر بأننا لسنا ذيو لا وأتباعا للأعداء ، حتى بعد أن انهزما فى يونية عام ١٩٦٧ ، وربما كانت ضراوة الحرب التى شنت ، لأننا كنا أمة مستقلة حقا ، رافعة الرأس فعلا وحقيقة . من هنا كان من الطبيعى أن يعيش التعليم أسوأ أيامه ، فهو مجرد " ظل لنظام قائم فقد صلاحيته منذ زمن .

وفقنا الله على طريق الحق والخير ، وسدد خطانا نحو ما يحبه ويرضاه ، إنه نعم المولى ونعم المجيب .

المؤلف

مصر الجديدة فى ١٢/٩/٢٠٠٨